الطريق لتصبح إنساناً

الجزء الرابع من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

بدون الله، بدون معونته ونعمته، لا يمكن للإنسان حتى أن يقترب من مفهوم الصلاح الروحي. ما الذي يستطيع الإنسان فعله؟ شيء واحد فقط: أن ينحني أمام مشيئة الله وأن يصرخ إليه بتواضع الروح قائلاً "قُدني أيها الرب حيثما تشاء وأعني لأتمم مشيئتك" وكم هو سهلٌ وخلاصي أن يسلك المرء السبيل الذي يقود إليه الرب.

فهل يسر الرب بأن يلبي طلبنا ويمنح حياتنا السلام والهدوء؟ إذا كنا لا نجرؤ على طلب شيءٍ ما من شخص آخر بإصرار، فبالأولى يجب ألا نطلبه من الله ونتوقع أنَّه سيتحقق بالتأكيد. إننا لا نعرف حتى ما هو صالح وما هو سيئ بالنسبة لنا. ولكن يمكننا أن نرى معونة الله ورحمته لنا في أنه يسمح لنا أن نحتمل ما لا يطاق بصبر وتواضع وخضوع لمشيئته المقدسة.

بدون الرب لا يمكننا نيل أي شيء، وبدونه لا يمكننا إعطاء أي شيء. هو يمنحنا كل شيء بنعمته. أولئك الذين أحبوا رأوه في كل مكانٍ وفي كل شيء، وقد كشف لهم كلمته الحية، كشف مشيئته وطرق عنايته. كيف تُكشف ومن خلال ماذا؟ من خلال نقاوة قلوبهم. علينا بنعمة الله أن نحفظ قلوبنا من الأهواء. أن نحفظها قبل كل شيء من الشك ومن الكبرياء. علينا أن نحفظها من الكذب ومن تبرير الذات، ومن الكراهية واحتقار القريب. إذا ما تمكنا بمعونة نعمة الله من منع هذه الأهواء من تملُّك قلبنا، فإنه سيصبح بمقدوره أن يقبل توجيهات كلمة الله ويتبع مشيئته.

إن التعزية والمخرج الوحيدين من أي اضطراب وتجربة هو التواضع. إنه السبيل الوحيد الذي يقود النفس إلى الحقيقة التي توضح كل شيء، وإلى الدفء الشافي، وإلى الحرية المُعتِقة. إذا ما خسرت سبيل التواضع هذا فإن النفس ستحاط بالظلمة وسوف تنقبض وترزح تحت الضغط. ذلك يقود إلى استنتاج خاطئ وكارثي، لأن المنطق الخاطئ ينظر إلى كل شيء من منظار خاطئ: جميع الظروف تبدو مرةً وكارثية ولا تستطيع رؤية طرق الله فيها، والأحكام الفائقة لعنايته المخلصة. لا يعود الناس أخوة بلا أعداء، وتزداد ضعفاتهم إلى أقصى حدودها.

تصبح ضعفاتنا الشخصية مريعةً بل وصوراً حيةً للعذاب الأبدي. نعم، هناك سبيل خلاصي واحد ألا وهو التواضع.

حيث توجد الأهواء يوجد الضيق والألم. إنه لأمرٌ لا جدال فيه أن الأهواء تعشش في قلوبنا، ولكنها لا تصبح معروفةً ومكشوفةً لنا بثقلها غير المحتمل عندما لا نكون مدركين لوجودها بل نشبعها بكل بساطة. إنها لا تضعف حتى عندما ندرك وجودها ونقاومها. ولكنْ، عندما ندرك وجودها داخلنا ولا نرغب بالتمرد ضدها بكل قوة نفسنا، عندما نرفضها بجزء من نفسنا ونصغي بالمقابل إلى كلامها المعسول بالجزء الآخر، حين ندير ظهرنا للتوبيخ ونشعر بالأسى على أنفسنا ولا نكون شجعاناً بما فيه الكفاية لنتبع معلمنا حامل الصليب على طريق الصليب، عندها وبكل تأكيد سنشعر بالعذاب والألم.

إن ربنا الذي أخذ على نفسه كل خطايانا وضعفاتنا، أظهر لنا مثالاً لجهاد الإرادة. في بستان الجسثيمانية، تعذب إلى أن قبلت إرادته بالآلام. اختبر قلبك وسترى أن هناك الكثير من النزاعات بداخله. علينا مرة وإلى الأبد أن نسلم نفوسنا لما ترشدنا إليه مشيئة الله، ولاتباع وصاياه، ولإرشادات القوانين الرهبانية الصارمة. حين توافق النفس يصبح الأمر سهلاً.

إن الرب يخلصنا بكل الوسائل. إن الأمراض الجسدية الخطيرة التي كثيراً ما تصيبنا دائماً ما تذكرنا بالموت. وما الذي يمكن أن يكون أنفع للنفس من تذكار الموت؟ إنه يحررنا من كل الميول الأرضية،

ويسمح لنا بمعرفة قيمة الشؤون الأرضية، والأهم من ذلك أن يساعدنا في السعي للحياة المستقبلية. فليمنحك الله أن يجلب مرضك ثمرة إلى نفسك: ثمرة الخلاص. إننا نؤمن أن كل ما يصنعه الرب إنما هو لمنفعتنا وخلاصنا الأبدي.

عوضاً عن رغباتنا يجب أن تقوم وصية الله، مشيئة الله التي تقودنا إلى الحياة الأبدية. إذا كنت في الحرب، فهل يمكنك القول إنك لا تريد الذهاب للقتال؟ لا، بل ستذهب بدون تفكير إلى موتٍ محتم. إذا كانت هناك معركة روحية قريبة، إذا كانت وصايا الله تستدعي جهاداً، كيف يمكننا أن نقول إننا لا نريد القتال وإنه من الأفضل أن نسلم أنفسنا كأسرى لأعدائنا؟ يا له من عار! وأي رعبٍ سيختبره من يتراخى في إرادته إلى هذه الدرجة في هذه الحياة؛ وفي الحياة المستقبلية ستتحمل نفسه عارًا أشد عندما تنكشف كل أفعالها وأفكارها! يجب أن تتضرع إلى الله وتصلي أن يقوي إرادتك لتقاوم الأفكار الأهوائية وتوجّه جميع قوى النفس وتطلعاتها ورغباتها إلى أهدافٍ عُليا، أهدافٍ مقدسة وسامية ونبيلة. كل انغماسٍ في أهواء المرء يقتل فيه نقاوة المشاعر الأخلاقية. إن الضمير، ذاك الناموس الأخلاقي الطبيعي المكتوب في قلوبنا، يصبح أصمَّ إذا لم نصغِ إليه وإذا تصرفنا بعكس ما يحضنا على فعله. ما معنى قولنا "هل أريد أم لا؟"، لا معنى لهذه الكلمات عندما يتعلق الأمر بالناموس الأخلاقي لخلاص نفوسنا.

جميعنا مدانون بكلمة الله المعطاة لنا لإرشادنا في الحياة ولخلاصنا ولإظهار طريق الحياة الأبدية ولتنقيتنا. إنها تدينا حين لا نصغي إليها، حين نتعداها. وستديننا أيضاً في الحياة المستقبلية. من المخيف أن يخطئ المرء أمام كلمة الله. ذلك مخيف لأن القلب يصبح قاسياً وتتوقف كلمة الله عن العمل فيه. إن هذه الحالة أسوأ من الموت الجسدي. لا تداعب مشاعرك لأنها مثل النار قادرة على تدمير كل شيء في النفس والقلب والذهن. ستحرق كل ما زرعته كلمة الله، تاركة النفس مع أهوائها وخطاياها فقط. علينا حفظ نقاوة الجسد والنفس، وإلا فإن النفس ستموت موتاً أبدياً، وهذا الموت أرهب من أي شيء في السماء أو على الأرض. تمعن في سير القديسين كيف أن الناس الصالحين جاهدوا وطلبوا الرب بكل قوة نفوسهم وأجسادهم.

اتخذ الرب يسوع الطبيعة البشرية لكيما يطهرها من الخطيئة الجدية، ومات ميتة مخزية على الصليب لكي يميت الخطيئة. وعبر قيامته وصعود طبيعتنا إلى السماء، أعطانا القوة لنكون أبناء الله. إننا بالمعمودية نتلقى عربون هذه البنوة. وإذا ما أردنا، فإنه يمكننا تلقي جميع مواهب نعمته. عبر المعمودية عبرنا الباب الذي فتحه لنا الرب نفسه. إذا تبعنا طريق وصاياه وتبعنا كلمته ومثال حياته، إذا اشتركنا في صلاحه وحقّه، عندها فإن الخطيئة الجدية لن تعمل فينا، بل ستعمل نعمة المسيح. علينا أن نقتني إيماناً بالفادي وأن نؤمن أنه فقط ببره هو يمكن أن نخلص من إثمنا. إننا نتقدس بقداسته، وبنقاوته يتطهر جسدنا. بدون الرب يسوع المسيح كان الجنس البشري بأكمله سيهلك بالخطيئة، بدون الرب، كل نفسٍ ستهلك في خطيئتها. ولأننا نتبع الخطيئة وإرادة جسدنا فإن الخطيئة تتجذر فينا وتتسلط على نفسنا وذهننا وقلبنا. إنها تقف كحائط بين النفس والرب. لذلك من الضروري أن نصرخ إلى الرب في الصلاة لكيما يأتي إلى النفس ويدمر هذا الحاجز.

أحياناً تبقى الأهواء وتستبد بقلوبنا، بغض النظر عن إرادتنا، حتى ولو كانت ضد إرادتنا. إن الرب يسمح للأهواء بتعذيبنا بهذه الطريقة لكيما ندرك عجزنا تماماً ونتواضع بالروح ونطلب القوة في إلهنا الواحد القدير القدوس.

يعيش الإنسان حياةً أرضية، كل ما فيها مائت وزائل. تتبدل الظروف وتتغير مشاعر الإنسان وتزول. إذا عاش المرء وقفاً للظروف والمشاعر فقط، فإنه يتذوق الموت بشكلٍ دائم، كل ما في حياته يموت، وهو نفسه يكون تحت حكم هذا الموت. عندما يطلب الإنسان الربَّ في هذه الحياة الوقتية المتغيرة، وعندما تعلمه كل ظروف حياته أن يعرف الرب، فإن كل شعور موجه حسب وصية الله يقربه من التأمل في الرب، مطبوعًا في قلب نقي. عندما يقوم الرب في النفس البشرية يبطل حكم الموت، لأن الظروف المميتة، المشاعر المميتة، قادت الإنسان إلى حالة الخلود وتذوقها لم يجلب الموت، بل

الحياة. عندما يعيش الإنسان بالأمور الفانية فقط، فإن الشرير يستخدم كل الظروف والمشاعر الأرضية لينصب فخاخه. إذا تحول هذا الموت إلى عدمِ موتٍ بالنسبة للإنسان، وإذا ما قاده إلى معرفة الرب في ظل ظروف الحياة الأرضية، وإلى الاتحاد معه بالروح من خلال المشاعر الأرضية، فإن شباك العدو تتمزق، والرب الذي حصل عليه الإنسان عبر الحياة المائتة يصبح عُتقاً من الدمار الذي كان العدو يُعدّه بشباكه التي أخفى فيها سماً قاتلاً. كل هذا بالروح وكل هذا تختبره النفس، وفي داخلها، في حياتها، تدرك تفسير كلمة الله.

إن طريقنا هو طريق الخطأة، وهذا ما نحن عليه في الحقيقة. علينا أن نتواضع ولا ننحرف عن طريق التوبة هذا، ولا نبلس زي الإنسان البار فيما نحن خطأة، ولا نبحث عن طرقٍ لتبرير أنفسنا، بل يجب أن ننتظر ونؤمن أن تبريرنا هو المسيح.

يوصينا الرب بأن نتصالح مع خصمنا ما دمنا معه في الطريق. ما دمنا في طريق الحياة يمكننا أن نصفي هذه الحسابات عبر التخلي عما يعيقنا في طريق الارتقاء الروحي، عبر التخلي عن كل ما يرافقنا في هذه الحياة. حين ينتهي طريقنا لن تكون هناك أشياء أو مشاعر يجب التخلي عنها، لن يكون هناك سوى الفقر الروحي وغنى العذاب الروحي، مثل المدين الذي لم يتمكن من سداد دينه. لا يعاني المدين دائمًا من مجرد تأنيب ضميره، بل يعاني بالأكثر من كونه محروماً مما تخيَّل أنه يملكه. إنه محروم من كل مقتنياته واطمئنانه وحريته. نعم، علينا أن ندفع دَيننا لخصمنا ما دمنا معه في الطريق، وذلك عبر التخلي.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. The Path of Becoming Human. Spiritual Instructions of St. Arsenia of Ust-Medvedits. Part 4. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 11/1/2023. https://orthochristian.com/156944.html